

## المبحث الأول

### الفسيفساء قبل العصر الإسلامي

حرص الإنسان منذ أطواره الأولى عندما كان يعيش في الكهوف على أن يزين جدران كهفه بصور الحيوانات التي كان يعيش عليها اعتقاداً منه بأن تمثيلها على جدران الكهوف سيمكته من السيطرة عليها؛ لذلك جاءت بعض هذه الصور تمثل حيوانات أصيبت بنبال أو سهام أو أي سلاح كان يستخدمه الإنسان يومئذ.

كان هذا بالنسبة للعصور الحجرية القديمة، وخير ما يمثل هذه العصور الصور التي زينت بها الكهوف المكتشفة في اسبانيا وفي فرنسا.

أما بالنسبة للعصور التاريخية القديمة، فإن الأهداف الرئيسة من الرسوم الجدارية كانت ولا شك الزخرفة والزينة وتخدم في الوقت نفسه أغراضاً تعبدية وشعائرية. وأقدم ما اكتشف من صور جدارية مهمة لهذه العصور في تل العقير (٣٥٠٠ ق. م) الذي نقتب فيه مديرية الآثار العراقية في عام ١٩٤٢ م حيث عثرت في معبد مقام على مصطبة مزينة بصور آدمية ورسوم فهود وغمور وتعد هذه الصور من أجمل ما وصل إلينا من الرسوم الجدارية.

وقد تطورت هذه الرسوم الجدارية لدى الإنسان مع تطوره في الحياة فأخذت شكل البيئة الجديدة التي كان الإنسان ينتقل إليها عندما غادر كهفه، وانتشر في السهول والوديان، فأخذ بأسباب المدنية الجديدة، حيث عرف السكن في البيوت المبنية باللبن المشوي والحجارة والطابوق، فكان طبيعياً أن تأخذ الرسوم الجدارية شكل هذا التطور، مثال ذلك استخدامه لمادة الملاط والجص التي كان يكسي بها

جدران البيوت المبنية بالمواد المذكورة، حيث وجدها صالحة لأن يزين هذه الجدران بصور مائية وبألوان مختلفة. وهنا بدأ يبرز الجانب الفني في عمله هذا.

فلما عرف الإنسان مادة الطلاء توصل إلى فن التزجيج، وبدأ يستعمل الطابوق المزجج في إخراج الأشكال الزخرفية الملائمة لذوقه وذوق العصر يومئذ.

وقد انتشرت عبر العصور هذه الطرق لتزيين الجدران، وقد أقبل العرب قبل الإسلام على زخرفة عمائرهم المختلفة بهذه الرسوم والزخارف المتنوعة وقد أشار الأزرقى. إلى أن جدران الكعبة كانت تزينها رسوم مختلفة كان من بينها صورة تمثل إبراهيم الخليل عليه السلام ورسوم عديدة للملائكة ورسوم أشجار وصورة للعذراء وفي حجرها السيد المسيح عليه السلام.

وقد كان لفن الرسوم الجدارية امتداداً إلى العصر الإسلامي، حيث استخدم العرب طرقاً متعددة في تزيين وزخرفة جدران الأبنية الدينية والمدنية كالرسم بالألوان المائية والفسيفساء واستخدام الطابوق في إبراز الأشكال الزخرفية المطلوبة، كما اتخذوا طريقة استعمال البلاطات الخزفية أو تربيعات الفاشاني للغرض المذكور. وسيقتصر بحثنا هنا على فن الفسيفساء.

والفسيفساء من الفنون التي زاو لها العرب في العصر الإسلامي وقد ذاعت هذه الطريقة في شتى الأقطار العربية والإسلامية، حيث أقبل الفنانون على استخدامها في زخرفة وتزيين جدران وأرضيات الأبنية المختلفة.

والفسيفساء فن زخرفي يتمثل في قطع صغيرة الحجم تصاغ ضمن قوالب معينة قد تكون من الزجاج الملون ومن الصدف أو الأجر أو البلور الملون بألوان مختلفة ثم تجمع القطع التي يتكون منها الشكل بعضها إلى بعض وتثبت بواسطة الجص أو الملاط.

وإذا أردنا أن نتبع الجذور التاريخية لصناعة الفسيفساء، فإننا نستطيع أن نقول إن أصل فكرة الفسيفساء مصدرها العراق وفي مدينة بابل بالذات حيث استخدم البابليون في تزيين جدران الأبنية بأشكال من الطابوق المزجج ذات الرسوم المختلفة، وأن الخبرات الفنية الأولى في هذا الاتجاه لهذه الصناعة يمكن إرجاعها إلى عصور أقدم معتمدين المخاريط الفخارية ذات الرؤوس الملونة والتي شكلت منها موضوعات

زخرفية ذات أشكال هندسية متعددة اكتشفت نماذج منها على الجدران الخارجية لمعبد الوركاء<sup>(١)</sup> (ش ٨١).

وهذا الأسلوب في الصناعة قد تطور بشكل واضح في الأجر المزجج الذي شكلت منه موضوعات فنية في غاية الدقة والجمال في باب عشتار<sup>(٢)</sup> (ش ٨٢). وجدران شارع الموكب<sup>(٣)</sup> (ش ٨٣) وقاعة العرش في بابل<sup>(٤)</sup> (ش ٨٤).

ويبدو واضحاً أن هذه الصناعة قد انتقلت إلى الأخمينيين الذين حكموا العراق خلال القرن السادس قبل الميلاد واقتبسوا كثيراً من عناصر الحضارة العراقية القديمة، وكان من بينها فن التزجيج<sup>(٥)</sup>. ومعروف لدى المعينين في دراسة التاريخ القديم أن الأخمينيين نشطوا في حالة السلم وفي حالة الحرب مع مراكز الحضارات القديمة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ومنها بشكل خاص بلاد اليونان حيث يمكننا اعتماد هذه الصلات الواقعة بين الأخمينيين واليونان والتي وصل فيها الأخمينيون إلى قلب أثينا، يمكننا اعتماد ذلك دليلاً على انتقال المؤثرات العراقية عن طريق الأخمينيين إلى بلاد اليونان.

ويمكن أن نستخلص من كل ما سبق ذكره أن فكرة الفسيفساء إنما ابتكار يعود بالدرجة الأولى إلى الأعمال الفنية التي أشرنا إليها في العراق، ولم يتكرها اليونان أو غيرهم.

وقد تطورت هذه الصناعة بصورة تدريجية فظهرت الفسيفساء، ويعد استخدام الفسيفساء تطوراً طبيعياً لاستخدام الطابوق المزجج لأن الصناع أخذوا في تصغير حجم الطابوق إلى أقل قدر ممكن حتى تتعدد الألوان وتكون الصور الملونة أكثر بهجة والتفاصيل أكثر وضوحاً.

(١) I. Ludy, S. The Art of the ancient near east (Thames and Hudson, London 1961) Plate 24, p. 46.

(٢) Parrot: Ander, Nineven and Babylon (Thames and Hudson London 1961) PL. 221-222, p. 174.

(٣) Ibid. pl. 221 p. 174.

(٤) Ibid. pl. p. 176. pl 224

(٥) انظر نماذج من هذا الفن في المصدر السابق لوحة ٤٧، ص ١٩٩